رحلة السادات الى الغرب : الرحلة القديمة - الجديدة !

رحلة السادات الى الغرب ، لم تبدا يوم الخامس والعشرين من تشرين الاول الجاري ، أي يوم بدء زيارته لكل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، بل هي بدأت قبل ذلك بكثير .. بدأت بنمو القوى البرجوازية البيروقراطية داخل النظام المصري وانسياقها ، تامينا لمصالحها المستجدة والمتضخمة ، الى التحالف مع القوى الرجعية التقليدية (البرجوازية الريفية والبرجوازية المدينية الكومبرادورية ، وبرجوازية المقاولات) في حلف رجعي جديد أخذ يسيطر على النظام المصري بشكل تدريجي ، وينحرف به رويدا رويدا - في البداية - عن السياسة الوطنية والانمائية المعادية للامبريالية التي كانت بارزة في فترة الخمسينات واوائل الستينات ..

واخذ هذا الحلف - لا سيما بعد ان توفرت له خلافة السادات لعبد الناصر - يكرس نهج الارتداد على تأمل نشاطاته الداخلية والقومية والخارجية .. فمن ضرب للعناصر التي عارضت الارتداد في ١٥ ايار ١٩٧١ ، الى اعادة الحياة للقوى الرجعية المعزولة ، بقرارات رفع الحراسات ، الى الارتهان للرجعية العربية على الصعيد القومي ، وصولا الى الخضوع للمخطط الامبريالي الصهيوني الذي يقوده كيسنجر ، وانتهاء بالخيانة الوطنية السافرة بتوقيع اتفاقية سيناء بين « حكومة جمهورية مصر العربية وحكومة اسرائيل » !!

وبالطبع كان الوجه الآخر لهذه السياسة على جميع الاصعدة الداخلية والقومية والخارجية ، هو التصدي الفاشي لكل القوى التقدمية ، بدءا من القمع الداخلي الشرس ضد انتفاضات العمال والفلاحين والطلبة ، الى المشاركة المباشرة في التآمر الدموي على ثورة السودان الديمقراطية ضد النظام النميري عام ١٩٧١ ، والوقوف المشبوه مع مؤامرات القوى الرجعية والفاشية في لبنان ضد حركة المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية . وانتهاء بالطعن المتواصل لعلاقات الصداقة والتعاون مع المعسكر الاشتراكي والقوى التقدمية والديمقراطية على الصعيد العالمي..

هذه هي رحلة السادات الحقيقية الى الغرب ، اما زيارته الحالية لكل من باريس وواشنطن ولندن ، فما هي الا الاعلان الرسمي عن العودة بمصر - من جراء هذه السياسة - الى حظيرة الغرب ، كما تقول صحيفة « لوموند » الفرنسية في اليوم الذي بدأت فيه الزيارة الحالية ، حين قالت ان هذه الزيارة تعبر عن عودة مصر الى حظيرة الغرب بعد غياب دام ربع قرن !!

من هنا فان رحلة السادات هذه يمكن ان تعتبر محطة خطيرة من محطات الهجمة الامبريالية الصهيونية الرجعية على المنطقة .. لانها تأتي في ختام مرحلة من التحولات الارتدادية التي شهدتها المنطقة ، وشكلت الاساس الحقيقي للنجاحات التي حققتها الهجمة حتى الآن ، كما انها تعتبر ، للسبب نفسه ، مقدمة لمرحلة جديدة في المخطط الامبريالي بعد ان استكمل اخضاع النظام المصري بشكل سافر لينطلق الى الهجوم على مواقع جديدة تبعد السيطرة عليها كجزء من عملية الاطباق الكامل على المنطقة لاعادة ترتيب اوضاعها كاملة بما يخدم المصالح الامبريالية والقوى الرجعية ..

فما ان وقعت اتفاقية سيناء التي تعتبر تتويجا للمرحلة السابقة من المخطط المذكور ، حتى انطلقت القوى العميلة للتحرك على محورين آخرين .

- الاول : الهجمة التصفوية الدموية التي فجرتها العصابات الفاشية والانعزالية ومن يقف وراءها ، ضد حركة المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان ..
- والثاني : هو تجريد الحملة العسكرية الايرانية الاردنية القابوسية ضد الثورة العمانية .

وبين هذين المحورين العسكريين ، تشهد الساحة العربية تحركات سياسية متشابكة لفتح الملف الفلسطيني على مائدة كيسنجر المحددة بضغط الاقتتال اللبناني على حركة المقاومة وبضغط مشاريع الادارة المحلية والانتخابات البلدية على الجماهير الفلسطينية في الارض المحتلة ، وبالضغط الرجعي العربي عامة والهاشمي خاصة على الشرعية العربية للثورة الفلسطينية . هذا في نفس الوقت الذي تجد سوريا نفسها فيه ، بين عروض كيسنجر التفاوضية، وبين الاستفراد العسكري الاسرائيلي الذي نجم عن اتفاقية سيناء وخروج النظام المصري رسميا وعمليا من دائرة المواجهة مع العدو الصهيوني ..

ومما لا شك فيه ان هذه التحركات والاوضاع برمتها ستكون محور مفاوضات الرئيس السادات مع زعماء الغرب ، وبشكل خاص مع الرئيس الاميركي وغيره من المسؤولين في الولايات المتحدة . حيث سيجري البحث عن افضل السبل والوسائل لدعم قدرات المخطط الامبريالي وقواه المحلية العميلة ، لمجابهة هذه الظروف وتأمين الظفر فيها ضد حركة التحرر الوطني العربية عامة والمقاومة الفلسطينية والقوى الثورية خاصة .

ومن هنا فان التصدي العربي التقدمي الشامل على الساحة الفلسطينية خاصة ، يصبح من اولى مستلزمات مواجهة هذا المخطط الامبريالي الاسود .. وهذا التصدي الشامل لايتأمن بغير الموقف الفلسطيني الثوري الموحد على اساس رفض التسوية ومقاومتها واحباطها .. والموقف الوطني التقدمي العربي الموحد على اساس التصدي لهذا المخطط الامبريالي بكل الامكانيات والطاقات ،وبشكل خاص بانشاء الجبهة الشمالية المقاتلة من اجل التحرير باركانها السورية - الفلسطينية - العراقية ..

انها بالفعل مرحلة المواجهة الحاسمة بين الجماهير العربية والهجمة الامبريالية الصهيونية .. ولانها هكذا نجد ان رحلة السادات الى الغرب تستأثر باهتمام كبير لدى الدوائر الامبريالية .

نظام السادات ومحصّلة القوى

منذ اتفاقية سيناء الاخيرة ، والبنود السرية التي انكشفت مؤخرا ، اصبح نظام السادات اكثر وضوحا وجهارا في التعبير عن سياسته واهدافه انطلاقا من المثل القائل : « اذا لم تستح فافعل ما شئت ! » وامام الحملة العربية المتصاعد على هذه الاتفاقية الخيانية ، أنبرى هذا النظام يدافع عنها بما ملك من اجهزة وعملاء ...

ويبدو ان السادات لم يكن يتوقع ، ان رفض الاتفاقية سيأتي هذه المرة من الجماهير المصرية نفسها، التي عبرت عنه في رفضها المشاركة في دعوات النظام لتأييد خطوته ، على الرغم من الضغوط التي مارستها « الباحث » هنا وهناك على الشباب والطلبة والعمال، خاصة بعد فشل اجهزة الاعلام الصحافية في الدفاع عن هذه الاتفاقية ، فعدا « روز اليوسف » و « المصور » و « الاخبار » التي نجحت الى حد ما في « فلسفة النصر » الذي حققته مصر من اتفاق سيناء ، نجد ان دفاع اغلب الصحف والمجلات تحيز بالخجل والوضاعة ، الامر الذي يخفي حقيقة المذلة والمهانة التي يستشعرها المواطن العربي المصري ، ولعل هذا كان السبب الذي دفع السادات في ذكرى وفاة الرئيس عبد الناصر في الاسبوع الماضي ، الى مهاجمة حسنين هيكل بعد طرده من « الاهرام » ، ثم الى تذكير الصحفيين المصريين بالانتفاضات التي جرت في بداية عام ١٩٧٣ ، والتي ادت الى طرد ١٣٠ صحفيا بسبب مواقفهم الوطنية لا اكثر . وتأكيده بانه لن يسمح بتكرار تلك المواقف ! ويبدو ان السادات كان يهدف في معرض هجومه على الصحفيين الى تحذيرهم من مغبة عدم تأييدهم للاتفاقية وسياسية النظام ، والتأكيد لهم بان نتيجة او مصير المعارضين منهم لن تكون افضل من مصير هيكل ان لم تكن اسوأ على الاغلب !

ويبدو ان السادات اتبع وسيلة جديدة في خلق التأييد لخطوته في سيناء ، اذ اصدر بيانا مزورا باسم لطفي الخولي رئيس تحرير مجلة « الطليعة » القاهرية ذات المواقف التقدمية ، ولكن اسرة تحرير « الطليعة » ردت بمقالة نشرتها ، انتقدت فيها العديد من بنود الاتفاقية ، كما ضغطت اجهزة الباحث على مجلس السلام المصري لاصدار بيان مؤيد للاتفاقية ، ورغم اضطرار المجلس لاصدار بيان « حيادي » الا ان اجهزة الاعلام نشرت البيان مشوها ومقتطعا بما يلائم النمط السياسي للسلطة . وواضح ان السلطات المصرية لجأت الى هذه الخديعة للايحاء بان هناك تأييدا واسعا في أوساط المثقفين لتلك الخطوة الخيانية .

ولعل صوت الرفض الحقيقي جاء من الكاتب التقدمي البارز اسماعيل المهدوي الموضوع قسرا الان في مستشفى المجانين منذ عام ١٩٧٠ ! اذ استطاع تهريب رسالة من سجنه (المستشفى) ادان فيها بوضوح وجرأة وعمق سياسي اتفاقية سيناء ، مفندا فيها كل ادعاءات النظام ، ومنبها لمخاطر هذه الاتفاقية مستقبلا على الوضع العربي عموما وعلى الوضع المصري خصوصا .

الطلبة يتحركون

لقد سلك النظام اتجاها آخر في قمع أي تحرك جماهيري ضده ، فقام بتمديد فترة اعادة افتتاح الجامعات والمعاهد ، مدركا ان هؤلاء الطلبة الذين فجروا المظاهرات الطالبة بتحرير سيناء ومقاتلة العدو سيرفضون المساومة الذليلة على ترابهم الوطني ، وكان لا بد من ان يتحرك الطلبة ، فقد اصدر طلبة جامعتي عين شمس والقاهرة بيانات ادانة للاتفاقية خاصة بعد انكشاف « البنود السرية الخيانية » والتي كشف عنها خارج مصر ، وعلى هذا الاساس اخذت السلطات المصرية تنظر بقلق شديد الى هذه التحركات النشطة في اوساط الطلبة والعمال ، ففرضت رقابة شديدة على الصحف العربية ، حتى الموالية منها للنظام المصري .

وجاءت الذكرى الخامسة لوفاة المرحوم عبد الناصر ، مناسبة ليعبر فيها الطلبة جماعيا ، عن رفضهم لنظام السادات وبالتالي لسياسته ...

ففي جامعة عين شمس عقد الطلبة الناصريون احتفالا بهذه المناسبة لتخليد ذكرى عبد الناصر والرد على حملات النظام المستمرة عليه . وشهد الندوة جمع غفير من طلبة المعاهد والجامعات الاخرى وكذلك عدد من العمال الشباب ، وسبق الاحتفال حملة لصق لصور الرئيس الراحل على الجدران والباصات ، قابلتها حملة مضادة من قبل الاجهزة في نزعها او تشويهها ! هذا وناقش الطلبة النواحي الايجابية من عهد عبد الناصر وندوا بالتراجع عنها ، وكالعادة ارسلت السلطة بعضا من ممثليها ، وكذلك بعض ازلامها بهدف تحويل الاجتماع لغير مقصده ، اذ حضر ممثلا عنها عبد الحميد حسن امين الشباب الذي حاول الكلام ، فقوطع عدة مرات ، وتحول الى استجواب للسلطة من قبل الحاضرين ، وخلال تلك المناقشات الحامية ، ووسط تراجع ممثلي السلطة وفقدانهم لاي منطق تبريري وطني ، تكشفت للطلبة محاولة قام بها الوزير رفعت المحجوب عندما ارسل بعضا من ازلامه ممن اشتراهم وكذلك بعض الباحث الى الاجتماع بهدف خلق الاستفزازات والتي يمكن ان تتطور الى اشتباك ، فعندها تتوفر المبررات الكاملة للسلطة كي تتدخل حسبما تشتهي ، هذا وسخر الطلبة من الاسلوب التآمري للوزير محجوب منددين به ، فقد وقفت احدى الطالبات قائلة :

« نحن بانتظار المحجوب ، ولن يفلت هذا العميل من ايدينا ولن يستطيع ضرب الحركة الطلابية الشريفة من داخلها » .

ويبدو من خلال هذه الاحداث ان تململا واسعا اخذ بالتبلور بين صفوف جماهير الشعب المصري ، ضد مواقف السادات الاخيرة ، هذا التبلور الذي لا يمكن ابرازه الان بقوة وفاعلية ، الا من خلال الحركة الوطنية المصرية ومقدرتها الذاتية والسياسية على التحرك المنظم ضد الاتفاقية والنظام .

لقد راهن السادات على ابقاء الحملة عليه من خارج مصر ، فهو من جهة يتدخل في الاحداث اللبنانية مشيرا الى اطراف عربية والمقاومة الفلسطينية وبالذات جبهة الرفض الفلسطينية ، بانها وراء الحملة عليه ، ولكن ما ان بدأت هذه الحملة تسري بين صفوف الجماهير المصرية ، حتى اخذت فرائض النظام ترتعد خوفا من اتساعها وشمولها .

ان التطورات اللاحقة واستمرار الصراع الاساسي مع العدو الصهيوني والامبريالية ستكشف اكثر فاكثر مواقف السادات عربيا ومحليا ، مما سيزيد عزلته على الصعيدين . ان مهمة عزل وتطويق نظام السادات ، مهمة وطنية وقومية اساسية لكافة فصائل حركة التحرر الوطني العربية ، لانها في جوهر الامر جزء من المعركة الحقيقية ضد الامبريالية والرجعية .